الأمثال الشعبيـــة بالمنطقة السهبية -دراسة بلاغـــــية وفنية -

أ. بولرباح عثماني

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة الأغواط

Otmani2009@maktoob.com

تمهيد:

إنّ الأدب الشعبي غني بالمادة التراثية التي يمكن للباحث تقصّيها والبحث في أغوارها، والأمثال الشعبية جزء من هذا الأدب وضرب من ضروبه الإبداعية، وهي أيضا مجال زاخر بالقيم الحضارية والاجتماعية للشعوب.و إنه ومن خلال المصادر التي أطلعنا عليها، وجدنا أنّ للمثل خاصية مميزة له، ومنظمة وكامنة فيه تميّزه عن باقي الفنون الأدبية الأخرى، وهي خاصية التشبيه التي تكاد تعريفات النقاد القدماء وممن تكلموا فيه تنحصر حولها بحيث بعضهم ربطوا مفهوم المثل بهذه الخاصية، فالمبرد وابن السكيت والنظام المعتزلي ربطوه بالتشبيه لا بالصورة الحسية لأنّ المثل يدخل في مفهوم المثل عندهم، فالمبرد مثلاً يرى بأن: " المثل مأخوذ من الإمتثال، وهو قول سائر يشبه به حال الثاني بالأول، والأصل فيه التشبيه".[1]

فهو بهذا القول يجعل المثل ما يمثل به من الأشباه والنظائر ووصفه بالسائر، فهذه الكلمة ترتبط بكلمة المثل فيقال (مثل سائر)، أي له سيرورة عبر الأزمان، فالمثل يرتبط بالحادثة التي وعلى الحادثة الشابهة، أي يقامر على الحادثة الأصلية، وضربه يكون لإظهار التوجيـــه.

أما النظام وهو إمام المعتزلة يقول في هذا الشأن أيضاً :" يجمع المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام إيجاز لفظ وإصابة معنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية وهو نهاية البلاغة"[2]، فهو بهذا يؤكد لنا أنّ للمثل شروط، إذا لم تتوفر فيه فلا يمكننا أن نعده مثلاً.

وفي سياق آخر نجد كثيراً من الدارسين ذهبوا في تحديدهم لمفهوم الحكمة والمثل، ووقعوا في خلطٍ بينهما ولا سيما العامة من الناس، فأثناء جمعنا للمادة واستقصائنا لها لاحظنا أنّ المتفوهين بالحكم والأمثال، وخاصة الأمثال الشعبية وفي المنطقة السهبية بالذات فتجدهم يجعلون المثل حكمة والحكمة مثلاً، وهذا من باب المجاز، فلذلك سنحاول إزالة هذا الإبهام واللبس، ولتوضيح ذلك نستدل بأبي هلال العسكري الذي قال : "كل حكمة سائرة مثلاً"[3].

كما أنّ شعبية المثل مكنته من احتلال موقع جليل في نفس قائله وسامعه، وجعلت له مكانة الصدارة من حيث الأهمية والتأثير بين سائر فنون القول الشعبية، وكان إدراك العرب القدامى لأهمية الأمثال سواء أكانت فصيحة أم مولدة أم شعبية جلياً واضحاً، فجمعوها وحرصوا عليها، ومن الذين اهتموا بالأمثال الشعبية (أبو طالب بن عاصم الكوفي ت

291 هـــ) في كتابه (غاية الأدب في معاني ما يجري على ألسن العامة في أمثالهم ومحاورتهم من كلام العرب)، و(أحمد الميداني، ت 518 هـــ)، (مجمع الأمثال).

كما اهتم بالأمثال الشعبية عدد من كبار علماء العربية كأحمد تيمور وأحمد أمين وعبد الرحمان التكريتي وغيرهم كثيرون جداً ممن جمعوا الأمثال الشعبية ودرسوها في معظم الأقطار العربية.

والمثل الشعبي لا يخرج عن هذا الإطار، ولا يختلف عن تعريف المثل (الفصيح)، ولكنه يختلف عنه في كونه ينطق بالعامية ولا يقل المثل العربي الفصيح بلاغة وإفصاحاً وتعبيراً عن المعاني والأفكار، فهو تعبير عن ثقافة أو طبقة معينة من الناس.

كما يرى ذلك الدكتور عبد المجيد عابدين: "هو العبارة الموجزة المعبرة عن رأي الشعب اتجاهه"[4]، فهو إذاً ترجمان لتفكير الشعب حتى لو كان ساذجاً وبسيطاً، إلا أنه ينم عن تجربة أفراده وثقافتهم ونمط معيشتهم.

ولقد حاول بعض الدارسين أن يحدد تعريف المثل الشعبي في العبارة التالية : جملة أو جملتين تعتمد على السجع وتستهدف الحكمة أو الموعظة" [5]، وهو بذلك لا ينطبق عن المثل الشعبي بوضع خاص بل أيضاً على المثل الفصيح ويضيف هؤلاء "إنّ المثل الشعبي تقطير أو تلخيص لقصة أو حكاية ولا يفهم معنى المثل الشعبي إلا بعد معرفة أو الحكاية التي يعبر المثل الشعبي عن مضمونها.

والواقع أنّ هذا التعريف يكاد يكون شكلياً، فهو لا يشير إلى المحتوى بطريقة تحدد ما يريده المثال، عدا الإشارة إلى الحكمة أو الموعظة بصورة من الصور، كما أنّ القول بأن المثل الشعبي تقطير لقصة سابقة عن المثل قد لا ينطبق عن كل الأمثال الشعبية البسيطـــة.

فالأمثال الشعبية تعبير صادق عن نفسية طبقات الشعب وأفراده على اختلاف مشاربهم وألوانهم واتجاهاتهم وأنماط معيشتهم، وهي دليل على تطور ذوق الجمهور وحسه الحضاري الرفيع، من جهة أخرى يعد المثل أداءاً شعبياً اتفق الناس على تقديره والاهتمام به وحظيّ بالأنس والألفة لديهم والتسليم بما جاء فيه حتى وإن تضمن إيجابية أو سلبية في التفكير وخاصة وأنه يمثل تعبير مقدم عند أهل المنطقة السهبية، فيعد أحسن تعبير عما يكنونه من أفكار، وما يجسدونه من عادات وسلوكات.

وعلى الرغم كما قلنا من التعبير الذي يعد ساذجاً وبسيطاً إلا أنه يمثل صوت الشعب الصارخ بالتوازي طبعاً مع المثل الفصيح، ويعد بحق لون من ألوان التعبير الفني العفوي في تراثنا الشعبي، لأنه قول قيل في زمن ماضي في أوساط قوم عاشوا حياة ساذجة على سجيتهم دون تغيير وتنقيح، توارثناها على هيئة عبارة موجزة تثير إلا علما بما يرد فيها من وعظٍ وحكمة وسخرية وفكاهة أحياناً أخرى تستدعي أن نوفيها حقها لأنها تعبر عن ثقافة أصيلة من تراثنا الشعبي العريق، ينطق به إنسان مجهول يتصف بجدة الذكاء والحافظة القوية والبديهة الحاضرة والرأي الراجح والبصيرة الثاقبة المتجاوزة للحدود الزمانية والمكانية.

إنّ الأمثال الشعبية وبصفتها فن من فنون الأدب الشعبي لا تخرج عن إطار الأشكال التراثية النابعة من عمق تفكير مجتمع المنطقة السهبية، التي تزخر بتراث شعبي متنوع، ومتعدد الأنماط من حكايات وأساطير وخرافات وألغازٍ وشعر شعبي.

فالأمثال الشعبية تأخذ حيزاً كبيراً من كلام أهل المنطقة، بحكم خصوصياتها البلاغية والفنية، وإيقاعها الموسيقى، ويتمثل ذلك في السجع على غرار المحسنات البديعية الأخرى، فالمنطقة تحتضن هذا التراث المعبر عن التراكم الحضاري، لأنه يمثل أصالة وعراقة هذه الفنون الأدبية منذ الماضي البعيد، فالمنطقة وبحكم طبيعتها الجغرافية لها صفات تميزها عن المناطق الأخرى، فالأمثال واسعة الانتشار بين عامة سكان المنطقة السهبية وخاصتهم، أقرتها مجموعتهم وتداولها فيما بينهم ويعود سر ذيوعها وانتشارها إلى جملة خصائص امتازت بها من أهمها أصالتها، واقعيتها، بلاغتها، موسيقيتها، اعتمادها على المفارقات أو المقابلات.

ومن خلال الدراسة التي عكفنا عليها سنكتفي بالجانب البلاغي والفني في دراسة أمثال المنطقة.

إنّ مفهوم الصورة البلاغية عند القدماء والمحدثين لازال لم يتضح بعد، فيمكن أن يوصف بالغموض إضافة إلى المصطلحات التي إرتبطت به، فالصورة كما يعرّفها الدكتور شفيع السيد :" والصورة تعني في الأصل الشكل المجسم والأشياء القابلة للرؤية البصرية " [6] وأما جابر عصفور وهو من النقاد المعاصرين يؤكد على الخصوصية التي تتميز بها صياغة

المعاني وطريقة تأليفها حيث يقوم البعض في شكل صورة حسية مرئية تجعل من الشعر يتخذ أشكال فن الرسم ويشير لها منه حتى ولو اختلفت الوسائل والمواد التي يصوغ بها.

وبهذا فإنّ الصورة تتلخص في الجانب الشكلي المجسم في العمل الإبداعي وهو ما تولنا إليه من خلال ما سبق.

1- الأشكال البيانية في بعض الأمثال الشعبية:

لقد تعدّت مصطلحات الصورة إلى الصورة الفنية التي يمثلها العمل الفني، والتي تتشكل منها الصورة الشعرية وتعدّ التشكيلة الأساسية للعمل الشعري وهي غير العمل النثري، أمّا الصورة البلاغية في تختص بجانب معين مكونات العملية الفنية، والجانب البلاغي الذي يركز على الأشكال البلاغية ودورها في العملية الإبداعية، و هو موضوع بحثنا، الذي ينحصر في إبراز الصورة وتحديد تجلياتها للعيان.

إنّ الصورة البلاغية قد حظيت بعناية العلماء أكثر من اعتنائهم بالصورة النفسية كما يرى ذلك الأستاذ مهدي غلاب حين قال :" والقدماء لم يعتنوا كثيرا بالصورة النفسية وأعتنوا بالصورة البلاغية" [7] فالمفهوم القديم للصورة البلاغية اقتصر على التشبيه والإستعارة، ويرى الدكتور علي البطل في هذا الشأن أنّ تاريخ تطور مصطلح الصورة النفسية مفهومان: ((مفهوم قديم يقف عند حدود الصورة البلاغية في التشبيه والمجاز ومفهوم حديث يضم إلى الصورة البلاغية نوعين هما الصورة الذهنية، والصورة بإعتبارها رمزا))[8].

فالصورة البلاغية تعد جانبا من جوانب الصورة الفنية نظرا إلى وجود جانب هام وهو الصورة الذهنية، و الصورة التي تستقر في الذهن أثناء قراءة العمل الفني ، والصرة باعتبارها جانب الرمز فيها يخلف جوا من الغموض، والعمق فيها ويعطي لها أبعاد أخرى، ومن هنا نخلص إلى أنّ الصورة البلاغية لا يمكن قصرها على أنماط بلاغية معينة بل تشكيل بين الصور الحسية والبلاغية.

وسنحاول دراسة بعض الأمثال الشعبية وتحليلها مجسدين بذلك مفهوم الصورة البلاغية التي تتشكل أساسا من هذه الأشكال يعد التشبيه أولى هذه الأشكال، يعني في اللغة التمثيل، ((و التشبيه هو بيان شيء أو أشياء شاركت غيرها في صفة، أو أكثر بأداة هي الكاف أو نحوها ملفوظة أو ملحوظة)) (9).

كما أنّ للتشبيه أركان معروفة لدى العام والخاص وهي طرفا التشبيه : (المشبه والمشبه به) وأداة التشبيه التي سبق ذكرها، ووجه الشبه.

ولنبين هذه الأركان ودورها في التصوير البلاغي سنحلل بعض الأمثال بداية بالمثل القائل :"يا مَرَبِي ذرِيةْ الناسْ كِي اللّي دقْ الماء في المهْرَاسْ ".

فالمشبه هو لفظ مربي والأداة هي كي، والشبه به جاء نحو (اللّي) بمعنى الذي وتعود على الإنسان الذي يدق الماء وهو أمر غير منطقي، أما وجه الشبه فهو محذوف.

إنّ المثل يضرب للذي يتبنى أبناءًا ليسوا من صلبه فلا ينقادوا له لأنه سيبقى بالنسبة لهم متبني فقط.

مثل آخر يقول قائله : " دِيرْنِي كِي خُوكْ، وحاسَبْنِي كِي عْدُوكْ "، فإذا تأملنا جيداً هذا المثل نجد أنّ الأداة قد ذكرت مرتين وهذا يعني أنّ هناك شبيهان، فقائل المثل شبه الإنسان الذي أمامه بالأخ، فكأنه أراد أن يقول له اجعلني كأخيك ثم طلب منه أن يحاسبه في المعاملات كمحاسبة العدو، فنوع المحاسبة هنا تقريباً مادي، وغالباً ما يضرب هذا المثل مع التجار، أو مع العمل في مجال ما.

هناك تشبيه آخر وهو " فلان يأكل كي المحلة ويصبح كي المسلة "، فالمشبه هو فلان، والمشبه به كلمة (المحلة)، والأداة هي (كي)، أما الطرف الثاني فهو المشبه دائماً فلان، المشبه به المسلة، والأداة (لكي)، وهذان الشبهان هما المرسل.

وعادة ما يضرب هذا المثل بالإنسان الذي يأكل كثيراً، ولكن أكله لا يظهر على جسمه فهو المسلة، والمسلة الإبرة الطويلة التي يستعملها الإسكافي في خياطة الأحذيـــة.

ومن أنواع التشبيه الغالب على الأمثال الشعبية التشبيه التمثيلي وهو ما كان وجه الشبه غيّر بيذ بنفسه بل يحتاج إلى تأويل، كما لا يكون إلا إذا تعذر اشتراك الطرفين حقيقة ومن هنا تكون الحاجة إلى تأويل بصفة أخرى يتأتى فيها الاشتراك.

وكما أنّ هذا التأهيل لا يتم تكلفا أو تعميقا وإنما جوهره التلازم بين الصفتين"[10]

أما التعريف المبسط للتشبيه التمثيلي هو الذي يكون وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد، وبعبارة أخرى هو الذي يكون وجه شبهه مركبا [11]كما يقول الشاعر:

و تراه في ظلم الوغى فتخاله قمرا يكر على الرجال بكوكب

فالمشبه هو صورة الممدوح وبيده سيف لامع يشق به ظلام الغبار، أما المشبه به فهو تلك الصورة للقمر الذي يشق ظلمة الفضاء ويتصل به كوكب مضيء أما وجه الشبه فهو ظهور ذلك الشيء المضيء الذي يلوح بشيء متلألأ في وسط الظلام، وفي اللسان الشعبي نذكر المثل القائل :

((فلان كِي كُعالة الفَرُوجْ، الريح اللِّي جاء يدِيهَا)) إنّ قائل هذا المثل شبه ممدوحه (بكعالة الفروج) وهي صورة الريش الطويل الذي يأتي في نهاية الديك، فإذا تأملنا وجه الشبه هنا نجده صورة منتزعة من متعدد، وهي صورة متحركة والمتمثلة في هيئة الريش المتأثر بالرياح ويضرب هذا النوع من الأمثال على الإنسان الضعيف الشخصية المتأثر بعواطف الغير، والذي ليس له رأي كما أنه يقبل أفكار الآخرين دون تردد.

كما نجد أيضا التشبيه الضمني موظفا في كثير من الأمثال الشعبية. وهذا الأخير عبارة عن تشبيه لا يوضع فيه المشبه والمشبه به في صورة من صور التشبيه المعروفة بل يلمحان في التركيب، هذا النوع يؤتى به ليفيد أنّ الحكم الذي أسند إلى المشبه ممكن " [12].

و على حد قولنا هو التشبيه الذي تكون أركانه غير جلية، شريطة أن يكون جملة كاملة كقول الشاعر:

ترجو النجاة و لم تسلك مسالكها إنّ السفينة لا تجر على اليبس

إنّ هذا التشبيه ضمني لأنّ أركانه غير ظاهرة فإذا أردنا أن نحوله إلى تشبيه صريح نقول: الذي يرجو النجاة و لم يسلك مسالكها مثل السفينة لا تجر على اليبس، وفي اللسان الشعبي نجد المثل القائل :

(المكسي برزق الناس عريان)، إنّ قائله شبه حالة ممدوحه الذي يرتدي ثياب غيره بحال الإنسان الذي لا يرتدي الثياب أصلا وذلك بلفظة (عريان) أما إذا تأملنا وجه الشبه نلاحظ أنّه يتمثل في حالة ذلك الإنسان الذي لا يمتلك ملابس لنفسه، و يسمى هذا التشبيه تشبيها ضمنيا.

تعرضنا فيما سبق للظاهرة التشبيهية وحاولنا تحليلها بلاغيا على بعض الأمثال وسنقوم بالشيء نفسه في الظاهرة المجازية الذي يعد الشكل البياني الأساسي للصورة البلاغية، والمعلوم أنّ المجاز عند البلاغيين هو استعمال اللفظ لا على وجه الحقيقة، بل على سبيل المجاز لغرض بلاغي مقصود، لوجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي، و قد تكون العلاقة بين المعنيان، الحقيقي والمجازي المشابهة، وقد تكون غير المشابهة، فإذا كانت العلاقة هي المشابهة نسميه مجازا لغويا وإذا كانت غير المشابهة نسميه المجاز المرسل، أما القرينة فقد تكون لفظية أو حالية. إنّ عبد القادر الجرجاني جسد لنا مفهوم المجاز وأسهب فيه حين قال: "أما المجاز، فكل كلمة أريد بها غيرها وقعت له في وضع واضعها، بملاحظة بين الثاني والأول فهي مجاز، وإن شئت قلت كلّ كلمة جزت بها ما وقعت له في وضع الواضع إلى ما لم توضع له، من غير أن نستأنف فيها وضعا لملاحظة بينها تجوز بها إليه، بيّن أصلها الذي وضعت له في وضع واضعها فهي مجاز)) [13]

على هذا الأساس قمنا بالتطبيق على بعض الأمثال الشعبية وحللنا صورتها المجازية لنبرز غرضها البلاغي ولنوضح بعض النفسيات التي يحظى بها المثل الشعبي.

على الرغم من أنّ الخطاب الشعبي لا يدرك الصورة المجازية، ولكنه يبدعها بطريقة عفوية ودون تكلف، وهذا ما سنوضحه من خلال تحليل بعض العينات والنماذج : ((كي تشبع الكرش تقول للرأس غنيلي)) والمجاز هنا في لفظ (تقول) لأن الكرش (البطن) أو المعدة لا تتكلم، والرأس كذلك لا يغني، وهنا شبه ميل الإنسان إلى الراحة أو اكتفائها بالضروريات وميلها إلى الكماليات بميل الإنسان إلى الغناء بعد الأكل، لأن الإنسان بطبعه يميل بعد الشبع من الأكل إلى الراحة والنوم، والعلاقة هنا علاقة جزئية، لأن القول يمثل وظيفة جزئية من الإنسان والقرينة حالية مثال آخر :((حط عليه العين)) وهو مثل يطلق عندما يراد تحقير الإنسان أو التقليل من شأنه، وهو مجاز مرسل، لأنّ العلاقة بين المعنيين الحقيقي والمجازي علاقة جزئية، وذلك يظهر من خلال أنّ العين جزء من الجاسوس وبها يتم عمله، وإنما استعملت تجاوزا للدلالة عنه، فهو يشبه القول الشائع في العربية الفصحى (أرسلنا العيونا) أي أرسلنا العيون بغرض الإخبار والترصد.

مثال آخر : ((الشبكة تضحك على السيار وتقلوا يا بو العينين لكبار))، وهو مثل يضرب للإنسان الذي يعيب أخاه الإنسان ويسخر منه، وينسى نفسه وهو أحرى بالذم، والمجاز هنا في كلمة "تضحك" لأن الشبكة لا تضحك، فالضحك من فعل الإنسان فتراها تعيب على السيار وهو نوع من الغرابيل ولكنه يختلف عن الغربال ويتميز عنه بكبر الثغور، فتذمه بكبر العينين وتنسى نفسها، فالقرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقي حالية وتفهم من السياق.

فبهذا القدر نحاول أن نبين البلاغة المجازية لهذه الأمثال التي تتجلى فيها الفنيات التي تبرز نضج القريحة الشعبية في الربط بين المعنى الحقيقة المجازية الدالة على مدى رسوخ الملكة البلاغية.

هذا عن بلاغة المجاز في الأمثال الشعبية وسنتحدث بعدها عن الإستعارة وهي من الصور البيانية التي عنيت باهتمامات الدارسين والمنظرين البلاغيين، والاستعارة كما هي معروفة في الأصل مجاز لغوي، وهي إضافة لذلك التشبيه الذي حذف أحد طرفيه وتنقسم باعتبار الحذف إلى نوعين :

تصريحيـــة: وهي ما صرح فيها بلفظ المشبه به وحذف الشبـــه.

مكنيـــة: وهي ما حذف فيها الشبه به وذكر الشبه، ودل على الشبه به لازم ومن لوازمه أو صفة من صفاته.

مثال ذلك : ((ما تخالط البوجعران ما يوصلك لمباتو))، فقد استعار لفظ البوجعران وهو المشبه به المصرح به في المثل للإنسان السيء الخلق والطبع وهو المشبه المحذوف، والعلاقة هي المشابهة، أما القرينة فهي حالية وبذلك فهي استعارة تصريحيـــة.

مثال آخر ((اللّي يخالط الصابون صاب نقاه، واللّي يخالط البرمة طلى بحمومها))، ففي هذا المثل نجد استعارتان تصريحية الأولى قولنا : ((اللّي يخالط الصابون صاب نقاه))، فقد استعار الصابون وهو المشبه به المذكور في المثل للإنسان المتخلف والقرينة حاليـــة.

أما الاستعارة الأخرى فهي في الشطر الثاني حيث استعار البرمة وهي المشبه به المذكور فالعلاقة مشابهة.

ومنه نخلص إلى أنّ الاستعارة تجسدت في الأمثال الشعبية وهي كنتيجة للذكاء البلاغي لقائلي الأمثال حيث ربطوا بين ما هو معنوي مجرد وحسي معنوي، وهو دليل على ملكتهم البلاغية وتوظيفها في تصوير القضايا الاجتماعية والاقتصادية تصويراً عميقـــاً.

هذا بالنسبة للاستعارة، أما الكناية فهي الأخرى أيضا يتضمنها المثل الشعبي بكثرة ولابد أن أوضح في البداية أنّ الكناية تحتل جانباً هاماً من جوانب البلاغة في الأدب ويتدارسها المهتمون بالبلاغة والنقد الأدبي، أما مقادر الكناية في الأدب الشعبي والكلام فلا يختلف كثيراً عن مقامها في الأدب الفصيح، لكن نظرة المتكلم الشعبي إليها هي نظرة الحاجة أي أنّ هذا المتكلم لا يحسب استعماله للكناية بلاغة أو شيئا من هذا القبيل، بل يجدها ضرورة تعبيرية لا يكتمل حديثه بدونها، فالكناية ظاهرة بلاغية دالة على صفتين لموصوف واحد صفة عارضة وهي المفهومة من الكلام، والصفة الأصلية هي في الغالب الصفة المرادة لتقريب المعنى من ذهن السامع وهذا ما يتضح لنا من خلال الأمثال التي بين أيدينا والتي وإن دلت فإنما تدل على بلاغة الخطاب الشعبي.

((قلبي على تمرة وقلب أما على جمرة))، كناية عن الإنسان الذي هو في راحة ودعة غير مبالٍ بعيداً عن أهله ولا يدري بحالهم، وخاصة أمه التي هي أشد لوعة عنه وما أدراك ما قلب الأم، فهذه أيضاً كناية عن اللامبالاة بالأهل والخـــلان.

((اللّي كلى سهموا يغمض عينو)) وتظهر هنا الكناية في ضرورة القناعة ما قسم الله للإنسان، فعبارة "يغمض عينوا" لا يقصد بها إغماض العين إنما هو كناية عن القناعة والرضا بالنصيب، وعدم الطمع بنصيب الآخرين لأنه سعرك مشين يرفضه العقل والدين.

((جاني بقطف وذنيه)) كناية عن الانهزام والخيبة، وعدم انتهاز الفرص، وهو يشبه في معناه المثل العربي ((جاء بخفي حنين))، أي وعاء دون المطلوب وصفر اليدين.

((يطوال ليلها وتعلف)) المثل اختصار لقصة فارس سئل عن فرس له متى تأكل التبن؟ فأجابهم بقوله : مهما طال الأمد ستأكل حتماً، وهو كناية عن الصبر، فبعد الشدة يأتي الفرج وبعد العسر يسراً.

((يحوس على الفولة وين تغرست))، وهو كناية عن التدخل في شؤون الآخرين والسؤال عن الأمور التافهة والفضولية بالتدخل على أسرار غيره، وقد جاء في القرآن الكريم ما يؤكد هذا الجانب: "يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسوؤكم.." المائدة: ١٠١

فمن خلال هذه النصوص برز لنا دور هذه الأمثال في العملية الخطابية التي تعتمد على ظاهر الاستشهاد والحجج لغرض تقريب الفهم وذلك من خلال تجسيد المعاني في أشكال حسية تعتمد التخفي والتعريض.

2-المحسنات البديعية في الأمثـــال الشعبيـــة :

إنّ ظاهرة السجع تكاد تكون السمة الغالبة في الأمثال والأمثال الشعبية على وجه الخصوص، وهي كما نعلم الصفة الأساسية التي تميزها على غرار بعض الفنون النثرية الأخرى كالمقامة مثلاً، وهو ما يتجلى لنا من خلال الأمثال الشعبية للمنطقة، والتي لا تكاد تخلو من هذه السمة البارزة، وهذا دليل على الثقافة اللغوية والحس البلاغي في المنطقة وعلى الرغم بما قد تعرض به من السذاجة في التعبير والتفكير فالظاهرة التي نستشفها في فن السجع من خلال قراءتنا الأمثال الشعبية هي تساوي للأمثال الشعبية هي تساوي فقراتها المعلوم عند الباحثين البلاغيين أنّ أحسن السجع ما تساوى فقراته، ما لم يكن فيه تكلفاً مقيتا، من ذلك نذكر: ((اللي طابت، بحمدها تابت))، ((الحاضر أعطوه، والراقد غطوه، والغايب أنسوه)).

هذا بالنسبة للسجع، أما الجناس فهو الآخر محسناً بديعياً لا تخلو منه الأمثال الشعبية، وهو كما نعلم عبارة عن تشابه في أصوات اللفظين لمعنيين مختلفين، وهو نوعان تام وناقص.

ومن خلال تصفحنا للأمثال الشعبية وجدنا الاعتناء أكثر بالجناس الناقص على عكس التام، ومن هذه الأمثلة ((الجار لو كان جار)) فكلمة جار مكررة مرتين وأنّ معناها مرة الشخص، ومرة لما يندرج عن المعاملة من الفعل واختلاف كل كلمتين في المعنى على هذا النحـــو.

مثال آخر ((اللّي فاتو البكري يروح يكري)) فالتجانس في لفظتي (بكري، يكري) والاختلاف في "باء، ياء) جناس ناقـــص.

أما المقابلة فهي الأخرى تضمنها المثل الشعبي وبإسهاب، مثل قول القائل: ((الليل بوذنيه، والنهار بعينيه))، وهذا نجده يحمل معنيين على الترتيب حيث قابل بين الليل والأذنيين والنهار والعينيين.

((خوذ راي اللّي يبكيك وما تخذش راي اللّي يضحكك))، فالبكاء والضحك، للأخذ وعدمـــه (مقابلة).

فالمقابلة في الأمثال الشعبية ما هي إلا بغية تحسين المعنى وتسهيله، كما هو الحال أيضا في المثل القائل ((هو يطلب ومرتو تصدق)).

من المحسنات أيضاً الطباق وهو الجمع بين الشيء وضده في الكلام وهو نوعان طباق الإيجاب، وهو ما لم يختلف فيه الضدان إيجاباً وسلبـــاً [14] كقوله تعالى: "وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال.." الكهف: ١٨

ففي الآية لفظتي أيقاظاً ورقود ويسمى هذا بالطبـــاق.

ويدعى هذا النوع من الطباق بطباق الإيجاب، نظراً لعدم اختلاف الضدان إيجاباً وسلباً، أما في الأمثال الشعبية نستدل بالمثل القائل: ((يا ربي يا خالق البيضة في العش ويا كاسيها في البلاد العريانة))، والطباق يظهر في الكلمتين المتضادتين " كاسيها وعريانة"، وهو طباق إيجاب.

وكذلك الحال بالنسبة للمثل القائل : ((أمالي يا مالي، ماني بالأول وماني بالتالي))، فالطباق إيجاب في (الأول، التالي) أي الأول والخير وضرب هذا المثل للإنسان الذي يريد أن يسعى إلى الوصول لشيء ولكن أثناء وصوله له يجد أنه ليس هو الأول الذي وصل إليه.

أما طباق السلب فيظهر في الأمثلة الآتيـــة:

((خبزة ما تطيب، إذا طابت تحرق))، فإذ تأملناه نجده يشتمل على علين من الكلمة (ما تطيب، طابت) فالأولى هي فعل سلبي (ما تطيب) أما الثانية فهي فعل إيجابي (طابت)، ويضرب هذا المثل للأشخاص المشركين في عمل واحد لا على سبيل الإتكـــال.

مثال آخر : ((سال مجرب، ولا تسال طبيب)) فالفعل الإيجابي سال، أما الفعل السلبي فهو لا تسأل، على سبيل طباق السلب.

وتطبق كذلك المثل القائل : ((أعقب على عدوك خويان ولا تعقب عليه عريان)) فالطباق يظهر في الفعلين من مادة واحدة أعقب، لا تعقب، فالفعل الأول إيجابي أما الفعل الثاني فسلبي، ويضرب هذا المثال كموعظة للإنسان وتتمثل في أن يمر على عدوه جائع، ولا يمر عليه عارياً لأن الجوع لا يتجلى على ظاهر الإنسان، ولا يلفت إنتباه عدو وهذا كي لا تذهب مهابة العدو منه لأنه إذا مرّ عليه عارياً يستهين به ويسخر منه، والمقصود من كلمة عارياً تلك الثياب التي تبين على فقره، وليس بعدم اللباس وهذا من بلاغة الكـــلام.

وفي هذا السياق نقول لقد تنوعت الأساليب اللفظية والمعنوية في الأمثال الشعبية بالمنطقة السهبية وكان لهذا التنوع والثراء تأثيراً بارزاً في العلاقات الاجتماعية، ومرد ذلك

في اعتقادنا أنّ المثل الشعبي لا يعالج قضية اجتماعية مرتبطة بظروف مرحلية معينة مثل القصة الشعبية وإنما يركز على السلوك الإنساني في ظروف وحالات متغيرة سواء أكان السلوك فردي أو جماعي وففي هذا السياق يقول التلي ابن الشيخ: " إنّ المثل الشعبي أهم من الشعر والقصة، وأقرب إلى الصدق في التعبير عن الظواهر الاجتماعية"[15]، لأنه لا يهتم بالظاهرة في حدّ ذاتها وإنما يهتم بالسلوكات الكامنة وراء الظاهرة، لهذا يلاحـــظ أن المثل يستخدم صيغة الإفراد بكثرة وخصوصاً اسم الموصول "اللي" ولا يستخدم كما رأينا صيغة الجمع إلا قليـــلاً.

ختاماً نقـــول إنّ الأمثال الشعبية جزء مهم من التراث والأدب الشعبي لأية أمة نتعرف بها وبواسطتها على نفسية تلك الأمة وخصائصها وأنماط سلوكها وطرق تفكيرها وضروب حياتها، من أجل ذلك كله كان لابد لأية أمة تريد اللحاق بركب الحضارة الإنسانية والإسهام فيه من الرجوع إلى تراثها، نعيد النظر فيه وتستجلي جوانب الخير منه.

و ما محاولتي في دراسة بعض الأمثال بلاغياً وفنياً إلا لمعرفة مدى التقارب والتشابه بين الأمثال بالفصحى أو العامية.

ومهما يكن فإنّ المثل يبقى ابن بيئته لأنه فـــن من فنون الأدب الشعبي الذي يعتبر كتراً فريداً من نوعه ومادة غنية بالمعطيات التي تساهم في التعرف على بلاغة الشعب وجماليات تعبيـــره.

الهوامش :

1/-أبو الفضل احمد بن محمد النيسابوري(الميداني) في كتابه مجمع الأمثال، المجلد الأول، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ب ت، ص13.

2/-المصدر نفسه، ص14.

3/- حنا الفاخوري، الحكم والأمثال، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1969، ص09.

4/- عبد المجيد عابدين، الأمثال في النثر العربي القديم، مع مقارنتها بنظائرها في الآداب السامية الأخرى، ط1، دار مصر للطباعة، ب ت، ص13.

5/- محمد ابراهيم أبو سنة، فلسفة المثل الشعبي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1968، ص26.

6/- شفيع السيد، التعبير البياني(رؤية بلاغية نقدية)، دار الفكر العربي، ب ت، ص26.

7/-مهدي غلاب، الصورة الفنية في شعرنباته السعدي، رسالة ماجستير، عمان، الاردن، 1992، ص32

8/علي البطل، النقد في الشعر العربي حتى آخر ق 2 هج، ط 3، دار الأندلس للطباعة والنشر 1983، ص20

9/- علي الجارم /مصطفى أمين، البلاغة الواضحة ودليلها، د م ج، وهران ص20

10/-عبد القاهر الجرجاني، اسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق ومراجعة محمد رشيد رضا، ط2 دار المعرفة، بيروت، لبنان ص62

11/-شفيع السيد، المصدر السابق، ص61

12/-علي الجارم /مصطفى امين، المصدر السابق، ص47

13-عبد القاهر الجرجاني، المصدر السابق، ص304

14/-علي الجارم /مصطفى أمين، المصدرنفسه، ص285

15/-التلي بن الشيخ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر؛ 1990، ص157.